المحاضرة الثالثة عشر

التاريخ الحضاري للأندلس الإسلامية :

كان المجتمع الأندلسي هجينا من عدة أجناس تلاحمت فيما بينها لتشكل مجتمعا أندلسيا متناسقا ، وقبل دخول المسلمين إلى الأندلس كان هناك القوط الغربيون وبذلك اندمج هؤلاء الأندلسيون في المجتمع الإسلامي بعد الفتح ، ثم هاجرت أمم من البربر إلى الأندلس مع الفتح وبعده ، كم شكل العنصر العربي احد أطياف المجتمع الأندلسي حيث قدموا مع الفاتحين وازدادت هجرتهم مع دخول الأمويين إلى الأندلس ، كما ضم الأندلس طائفة أخرى تمثلت في العبيد الذين جلبهم النخاسون من السودان وكذا الصقالبة من الاسارى الأوربيين الذين صار لهم ثقل في مدينة قرطبة فيما بعد ، كم نتجت فئة المولدين (اسبان مسلمون وتضم كذلك الاسبان المولودين من أب امازيغي أو عربي وأم اسبانية) الذين شغلوا مناصب هامة أو اشتغلوا بالتجارة وقد اندمجوا سريعا في المجتمع الأندلسي المسلم الجديد إضافة إلى المعاهدين أو أهل الذمة (يهود ونصارى) الذين شكلوا كذلك جزءا من المجتمع الأندلسي الجديد .[1]

أما عن الزراعة في الأندلس فقد أشاد الجغرافيون بأرض الأندلس ووفرة إنتاجها الزراعي ، وقد صنف الأندلسيون التربة وعرفوا ما يصلح لها من مزروعات وأسمدة ومن أنواع التربة الأندلسية اللينة والجبلية والسوداء والبيضاء والرملية والصفراء والحمراء والخشنة (الحرشا) والرقيقة والمائلة إلى الحمرة (المكذنة)، ويبدأ العمل الزراعي بتجهيز الأرض وحرثها من مرتين إلى أربع مرات حسب نوع التربة وكذا نوع الزرع أو الغرس ، وحددوا لكل ارض نوع من المحاريث ويساهم الحرث في قلع

[1] ج س كولان : الأندلس ، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرين ، ط 1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1980 ، ص ص 87 – 96 .

الحشائش الضارة ووصول حر الشمس إلى أعماق خطوط الحرث ، وبعد الحرث تسوى الأرض ثم يتم تخطيطها ، وقد برع الأندلسيون في التسميد ،واستعمال الدورات الزراعية وغيرها من تقنيات الزراعة، كما برع الأندلسيون في غراسة الأشجار [2] . وتزودنا المدونة الجغرافية بكثير من أنواع المحاصيل الزراعية في الأندلس وفي مختلف حواضرها ، فقد ذكر صاحب كتاب ذكر بلاد الأندلس وهو مؤلف مجهول قوله عن طليطلة وأقاليمها أنها من أطيب مدن الأندلس هواء وأعذبها ماء وأكثرها أرضا وثمارا وهي كثيرة الزرع والضرع وان القمح يمكث بها مختزنا تحت الأرض في المطامير مائة سنة ولا يعفن أو يتغير له لون أو رائحة أو طعم ،وهي كثيرة الأرزاق من قمح وعسل وفواكه وثمار وبها الكثير من حب الملوك والجوز والتفاح [3] ، كما ذكر ذات المؤلف أن مدينة سرقسطة فيها القمح والعنب والتين والخوخ والتفاح والاجاص والفول والحمص وهي من أكثر بلاد الأندلس فاكهة وهي مدينة زرع وضرع [4] ، أما الحميري صحب الروض فيقول عن مدينة بلنسية بأنها على نهر جار ينتفع به في سقي الزروع ولها عليه بساتين وجنات وهي كثيرة الفواكه والثمار جامعة لخيرات البر والبحر [5]

كما ذكر الحميري أن مدينة مالقة مشهورة بالتين الذي يصدر إلى الشام والعراق وربما وصل إلى الهند لطيبته وعذوبته [6] ، أما ابن الخطيب فذكر في كتابه معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار أن مدينة انتقيرة (بين مالقة وغرناطة) أنها ((محل

---

[2] يحي أبو المعاطي محمد عباسي : الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس 238 – 488 هـ ، أطروحة دكتوراه ، جامعة القاهرة ، 2000 ، ص ص 420 – 421 .

[3] مؤلف مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ترجمة : لويس مولينا ، مدريد ، 1987 ، ج 1 ، ص ص 47 – 50 .

[4] نفس المصدر ، ص 70 .

[5] الحميري : صفة جزيرة الأندلس – منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار - ، نشر وتعليق : ليفي بروفنسال ، ط 2 ، دار الجيل ، بيروت ، 1988 ، ص 47 .

[6] نفس المصدر ، ص 178 .

الحرث والأنعام ومبذر الطعام ... ولا تُضاهى في جدوى فلاحة وعظم ملاحة)) [7] ، وذكر ذات المؤلف عن مدينة وادي آش قوله أنها كثيرة الجداول مخضرة الجوانب فيها الفواكه الكثيرة والكروم الأثيرة والسقي الذي يسد الخلة ويضاعف الغلة [8] .

أما عن الصناعة فهي مهمة في رفع مستوى معيشة الساكنة وتوفير حاجياتهم وتامين مصادر رزق لبعضهم ، ورغم أن كتب التاريخ العامة الأندلسية أغفلت الحديث عن الصناعة والصناع بما يشفي الغليل ووردت بعض المادة الخبرية في كتب الحسبة والتي صورت لنا مدى التقدم الذي بلغته الأندلس في المجال الصناعي [9] ، وساهم في ذلك توفر المواد الأولية للصناعة من مواد زراعية كالحبوب والزيتون والتوت ودودة القز والقطن والكتان وقصب السكر وسائر الخضروات والفواكه ، كما توفرت المعادن كالذهب الذي كان يستخرج من مياه انهار مدينة لاردة أو نهر شنيل الذي يمر بغرناطة أو مدينة اشبونة (لشبونة) ، وتستخرج الفضة من مناجم البيرة ولوشة وقرطبة واشبيلية وغيرهم والحديد الذي يستخرج من المرية ووادي آش وقرطبة وطليطلة وشاطبة وكذا النحاس من البيرة وطليطلة وبجانة ، ويستخرج الرصاص والقصدير من المرية والبيرة وسرقسطة وغيرها ويستخرج الزئبق من جيان وقرطبة ناهيك عن الحكل في طرطوشة وبسطة والكبريت في بجانة ومرسية ، ومعادن أخرى ، ومن أهم الحرف والصناعات بالأندلس المنسوجات الحريرية

---

[7] لسان الدين ابن الخطيب : معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، تحقيق : محمد كمال شبانة ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2002 ، ص 127 .

[8] نفس المصدر ، ص 112 .

[9] تواتية بودالية : دور السلطة الأموية في دعم وتشجيع النشاط الصناعي في بلاد الأندلس خلال القرنين (3 – 4 هـ / 9 – 10م) ، دورية كان التاريخية، العدد الثالث عشر، سبتمبر 2011 ، ص 78 .

والقطنية والكتانية والصوفية وصناعة السفن والأسلحة والأصباغ والورق والزيت والصابون والخزف والزجاج والصناعات الغذائية وغيرها [10] .

أما عن التجارة فقد كانت مدن الأندلس مراكز اقتصادية هامة للتجار والبضائع من جميع مناطق البحر المتوسط ، حيث كانت الحواضر الأندلسية مدن للتجار الأجانب والأندلسيين على السواء ، وقد بقيت تلك المدن الأندلسية شديدة الارتباط بمناطق أخرى من حوض المتوسط ، وكانت مدن مثل المرية واشبيلية ومالقة تقوم بدور مخازن التصريف التجارية ، وكان التجارة مجال نشاط مشترك للمسلمين والنصارى واليهود ، غير أن التجار المسلمين يشكلون جماعة متميزة وكانوا يتعاملون بكثير من البضائع المختلفة كالأقمشة والمواد الغذائية والتوابل والأحجار الكريمة والفراء والحيوانات والكتب والرقيق [11] وغيرها من المواد المتاجر بها [12]

أما عن الحياة العلمية والثقافية بالأندلس ، فقد وصلت إلى أرقى مستوياتها وكانت الجغرافية الأندلسية المسلمة ولّادة لمجموعة من العلماء نبغوا في كثير من العلوم حتى أضحت الحواضر الأندلسية مقصدا لطلاب العلم من كل المناطق ، ومن أهم مراكز التعليم الرئيسية في الأندلس المساجد والكتاتيب ثم ظهرت المدارس والجامعات والمكتبات ، حيث عم التعليم الحواضر الأندلسية وشكلت اشبيلية وغرناطة وطليطلة وقرطبة أهم جامعات الأندلس ، وظهر علماء تجاوزت شهرتهم

---

[10] جهاد غالب مصطفى الزغول : الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، 1994 ، ص 19 وما بعدها .

[11] اوليفيا ريمي كونستبل : التجار المسلمون في تجارة الأندلس الدولية ، ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، إصدارات مركز دراسات الوحدة العربية ، ط 1 ، بيروت ، 1998 ، ج 2 ، ص 1063 وما بعدها .

[12] للاستزادة حول النشاط التجاري الأندلسي انظر: اوليفيا ريمي كونستبل : التجارة والتجار في الأندلس ، تعريب : فيصل عبد الله ، مكتبة العبيكل ، د.م ، د.ت .

الجغرافيا الأندلسية مثل ابن خلدون والإدريسي وابن زهر وابن طفيل وابن ماجة وابن حزم وأبو حيان التوحيدي وعباس بن فرناس [13] ، ولسان الدين ابن الخطيب ، وغيرهم كثير في مختلف العلوم والمعارف ، وقد شهد المؤرخون المسلمون كما المستشرقون بفضل الأندلس على الغرب [14] .

إن الآثار الباقية اليوم في الأندلس تدل على عظمة الحضارة الإسلامية ، فقد خلف المسلمون تراثا إنسانيا شاهدا عليهم من مدن وعمائر وقصور وقلاع ومدارس ومساجد ومعالم كثيرة أخرى يشاهدها الناس عيانا في كل من اسبانيا والبرتغال [15] ، تلك المعالم التي أضحت عامل جذب للسوّاح من مختلف أصقاع العالم .

---

[13] عبد العزيز شهبي : المرجع السابق ، ص 114 .

[14] من أمثلة هذه الدراسات خوان فيرنيت : فضل الأندلس على ثقافة الغرب ، ترجمة : نهاد رضا ، ط 1 ، اشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع ، دمشق ، 1997 .

[15] للاسترسال في معرفة هذه الآثار الباقية في اسبانيا والبرتغال راجع : محمد عبد الله عنان : الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال ، ط 2 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1997 .

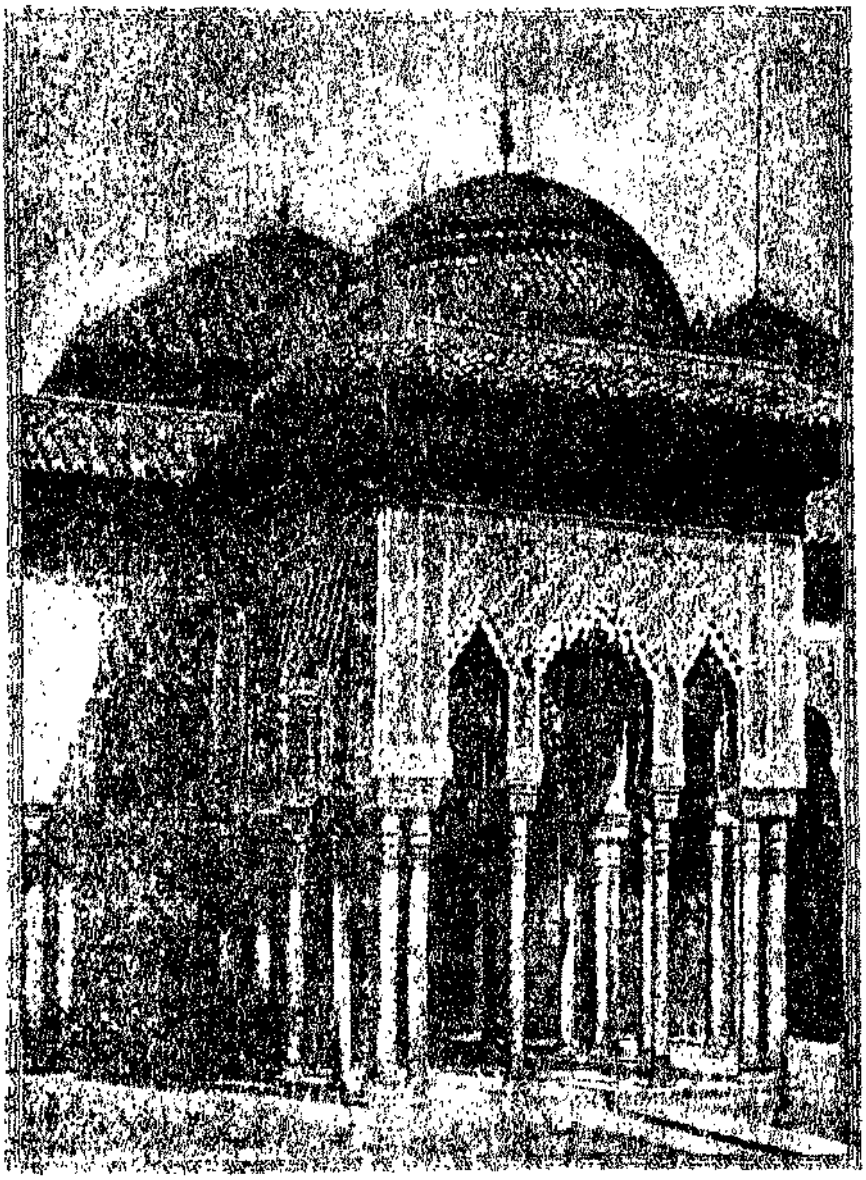

قصر الحمراء في غرناطة

الشكل رقم 3 : قصر الحمراء في غرناطة [16]

[16] ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الأندلس ، ترجمة : ذوقان قرقوط ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د.ت ، ص 137 .

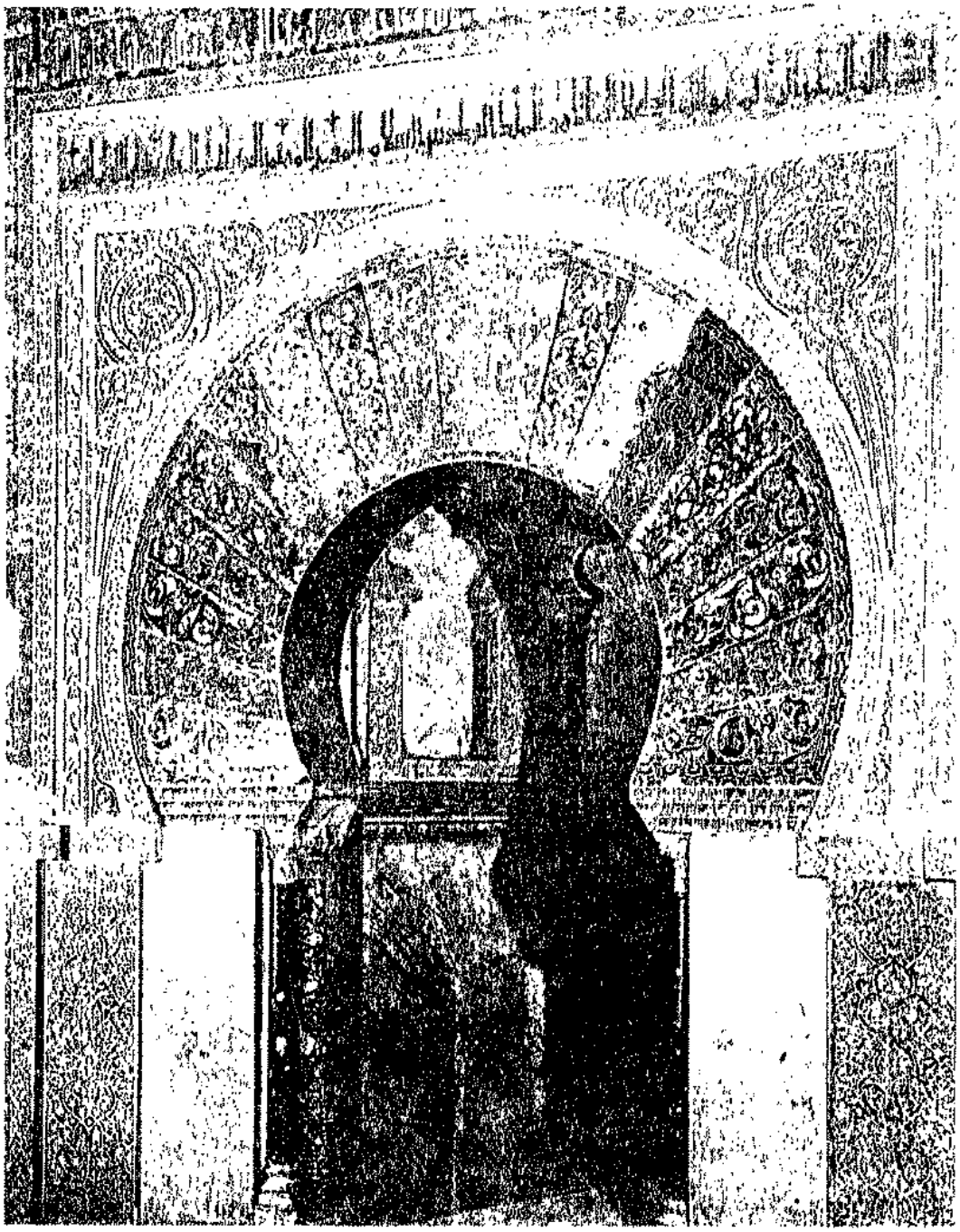

الشكل رقم 4 : محراب جامع قرطبة .[17]

[17] ليفي بروفنسال ، المرجع السابق ، ص 145 .